

الْفِطْرَةُ

عناصر الموضوع

٣٢٨	مفهوم الفطرة
٣٢٩	الفطرة في الاستعمال القرآني
٣٣٠	الألفاظ ذات الصلة
٣٣٢	الله تعالى فاطر الموجودات
٣٣٧	الفطرة والإيمان بالله
٣٤٤	الانحراف عن الفطرة
٣٥٤	الاستقامة على الفطرة

مفهوم الفطرة

أولاً: المعنى اللغوي:

يدل أصل مادة (فطر) على فتح شيء وإبرازه، من ذلك الفطر من الصوم. يقال: أفطر إفطاراً. وقومٌ فطرٌ أي مفطرون. ومنه الفطر، بفتح الفاء، وهو مصدر فطرت الشاة فطراً، إذا حلبتها^(١).

والفطرة: الاستقامة على التوحيد^(٢).

وفطر: اخترع وأنشأ^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الفطرة: «الجملة المتهيئة لقبول الدين»^(٤).

وقيل: «الخلقة؛ لأن من معاني الفطرة الخلقة»^(٥)، التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه»^(٦).

قال النبي صلى الله عليه وسلم^(٧): (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]^(٨).

وولادة المولود في سياق هذا الخطاب النبوي يكون معناها «أي على الجملة القابلة لدين الحق»^(٩).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥١٠/٤.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢٥٤/٦.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٩٥/٣.

(٤) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني ص ١٦٨.

(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار ٤٦/٣.

(٦) بهجة قلوب الأبرار، السعدي ص ٥٩.

(٧) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٣/٣١٠.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل

يعرض على الصبي الإسلام، ٩٤/٢، رقم ١٣٥٨.

(٩) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢٠٠/٤.

الفطرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فطر) في القرآن الكريم (١٩) مرة، ويخص موضوع البحث منها (١٥) مرة^(١).

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]
اسم الفاعل	٦	﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَتَمِّدُ وَلِيًّا قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]
المصدر	١	﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]

ووردت الفطرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: إيجاده الشيء وإبداعه^(٢). ولم تخرج في الاستعمال القرآني عن معناها اللغوي.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الفاء، ص ٨٨٠-٨٨١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النشأة:

النشأة لغة:

أصل مادة (نشأ) يدل على ارتفاع في شيء وسمو. ونشأ السحاب: ارتفع. وأنشأه الله: رفعه^(١)، ويقال: «أنشأه الله: خلقه. وأنشأ الله الخلق أي: ابتداء خلقهم»^(٢).

النشأة اصطلاحًا:

الدلالة الاصطلاحية لمصطلح الإنشاء هي (الابتكار).

الصلة بين النشأة والفطرة:

دلالة مصطلح النشأة على الابتكار لها صلة بإحدى معاني الفطرة وهي (الإبداع)؛ لأن الله عز وجل ينشأ الفطرة في الإنسان ويدعها من العدم.

٢ الغريزة:

الغريزة لغة:

أصل مادة (غرز) على الإدخال والقرب والحبس^(٣). وأقرب المعاني اللغوية لدلالة لفظة (الغريزة) اصطلاحًا نفسيًا هو معنى (الحبس) فكأن الغريزة محبوسة في الإنسان كحبس اللبن في جسم الناقة فغرز ولم يخرج.

الغريزة اصطلاحًا:

«سجية، فطرة، طبيعة من خير أو شر تصدر عنها صفات ذاتية» انقاد لغريزته - مكافحة الغرائز البهيمية»^(٤)، «هي ملكة تصدر عنها صفات ذاتية»^(٥) ومن معانيها الطبيعة^(٦).

الصلة بين الغريزة والفطرة:

الغريزة أخص من الفطرة فبينهما عموم وخصوص، فالغريزة إحدى جوانب الفطرة.

(١) انظر: قاييس اللغة، ابن فارس ٤٢٨/٥ - ٤٢٩.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٧٠/١.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤١٦/٤.

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١٦٠٧/٢.

(٥) الكليات، الكفوي ص ٦٧١.

(٦) انظر: شمس العلوم، الحميري ٤٩٣١/٨.

الجبلة لغة:

الفطرة. جبل الله عز وجل الخلق يجبلهم ويجبلهم. وهذه جبلة فلان أي خليقته التي خلق عليها ^(١)، «وجبلة الوجه: بشرته» ^(٢).

الجبلة اصطلاحاً:

إن الجبلة تعني الخلق ^(٣) و«الجبلة: الطبيعة والخلقة المركوزة في أصل الخلقة» ^(٤).

الصلة بين الجبلة والفطرة:

الجبلة تعطي معنى من معاني الفطرة (الخلقة).

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢٦٩/١.

(٢) العين، الفراهيدي ١٣٦/٦.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص ٣٥٨.

(٤) معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنبي ١٦٠/١.

الله تعالى فاطر الموجودات

إن من أهم ركائز الفطرة الصحيحة الإيمان بالله جل وعلا الفاطر أي فاطر الموجودات كيف لا وهو مبدعها صغيرها وكبيرها، ومن أسمائه (الفاطر)، وهو فاطر أعظم شيئين في الكون وهما السموات والأرض، وهو فاطر الخلق؛ لكن بعض الناس جحدوا فطرة الله سبحانه وتعالى وراحوا يؤلفون مناهج أرضية إنسانية قاصرة بحجة أن الله عاجز عن تدبير شؤون خلقه، فحول ملاحظة الشيوعية الشهادة لله بالوحدانية إلى ضلالة.

فبدلوا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بكلمة أخرى وهي (لا إله والكون مادة)، هذا بالنسبة للشيوعية، وأما بالنسبة لمتزعمي الرأسمالية في أمريكا وأوروبا فإنهم مشركون ووثنيون: يعتقدون بآلهة ثلاثة: «الأب والابن وروح القدس»، ويقدمون الصليب، وعبدوا المادة التي خلقها الله فضلوا وأضلوا، ستنال في جو هذا المبحث المحاور التي ذكرناها وهي (اسم الله الفاطر ودلالته، والله فاطر السموات والأرض، والله فاطر الخلق).

أولاً: اسم الله الفاطر ودلالته:

ودليله قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ

أَجْنَحَةٌ مَخْنُوعَةٌ وَتِلْكَ رِزْقُكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ [فاطر: ١].

وتعني لفظة «الفاطر: الخالق، المنشئ للخلق» (١).

فأغلب مواضع لفظة (فاطر) في القرآن الكريم تعني الخالق (٢).

وهي «المخترع المبتدي، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكنين بين التوحيخ، أي أيشك فيمن هذه صفته؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك» (٣).

وأما اشتقاقه «فاشتقاقه من الفطر وهو الشق، ويشبه أن يكون معناه هو الإحداث دفعة» (٤).

ودلالة «كونه فاطراً فهو عبارة عن الإيجاد والابداع، فكونه تعالى خالقاً إشارة إلى صفة العلم، وكونه فاطراً إشارة إلى صفة القدرة» (٥).

«ثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات» (٦).

و«أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٩١/٢.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٦٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٢٧.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١/١٢٧.

(٥) المصدر السابق ١٢/٤٧٤.

(٦) المصدر السابق ١٢/٤٩٢.

وقال آخرون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني البدأة التي ابتدأهم عليها يريد أنه مولود على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من قبولهم عن آبائهم اعتقادهم. قالوا والفطرة في كلام العرب البدأة والفاطر المبدئ والمبتدئ، فكأنه قال: صلى الله عليه وسلم يولد على ما ابتدأه الله عليه من الشقاء والسعادة وغير ذلك مما يصير إليه وقد فطره عليه واحتجوا بقوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿ [الأعراف: ٢٩ - ٣٠].

وروى بإسناده إلى ابن عباس قال: لم أدر ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدأتها (٢) «وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيفٌ على استحالة الألوهية لغير الفاطر» (٣).

وقال تعالى على لسان الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يدعوهم: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣) [يس: ٢٢]. «أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٣٨٦/٨

٣٨٧ -

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١٦٦/٦.

يدل عليه ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض.

وثانيها: أنه قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي﴾ [الروم: ٣٠].

مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلاً عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجوداً إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجوداً، وبإيجاد تلك الصورة صار موجوداً لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجوداً للكون لا يقتضي كونه موجوداً لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجوداً للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه تعالى موجوداً لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن» (١).

(١) المصدر السابق ٥١٥/١٨.

إليهم؛ لأن الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر، وفي الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق»^(١).

ثانياً: الله تعالى فاطر السماء والأرض:

من خلال البحث في القرآن الكريم لغرض معرفة مواضع ورود لفظ ﴿فَاطِر﴾ مقترناً بلفظي ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نجد في عدة مواضع ترد في سياق بيان القدرة الباهرة لله عز وجل من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفاطر السماوات أي: «مبتدئهما»^(٢)، و«يعني خلقكم خالق السموات والأرض»^(٣).

كذلك نجد موضعاً آخر في سياق سورة يوسف عليه السلام لبيان النعم الإلهية في قوله - جل وعلا: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحُ مِثْنَى وَتِلْكَ وَرِيعٌ بَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

«يعني أنه بدأ خلقها فقوله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على تلك البداية التي ابتداء الله - عز وجل خلقه بها، وأخذ موثيقهم عليها من الاقرار له بالربوبية، ثم يعرب عنه لسانه بما يلقيه أبواه من الشرائع والأديان، فيعرب بها، وينسب إليها»^(٤).

وفطر السموات والارض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتداء الخلق عليها، فذكر كونه فاطر السموات والارض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له، فذكر علمه سبحانه وتعالى بالغيب والشهادة، وإن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه، وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه

(١) السراج المنير، الشرييني ٣/ ٣٤٥.

(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة ص ١٥١.

(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي ص ٧٣.

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ابن بطة العكبري ٢/ ٧٢.

وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور، وأنه المستحق للإلهية بسبب ذلك الانفراد، بين هنا أن آلهتهم مسلوية من صفات الكمال، وأن الله متصف بها^(٢)؛ فهو قادر على إعادتهم لأنه هو الفاطر المبدع^(٣).

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَمْلِكُونَ لِأَمْرٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَوَوِی الظُّلُمَتِ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

ونجد بأن «المعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى ﴿شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى، واستحقوا بذلك العبادة كما استحقها سبحانه؛ ليكون ذلك منشأ لخطئهم، بل إنما جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدر على ما يقدر عليه الخالق، والمقصود هو الإنكار والنفي هو والمقيد على ما نص عليه غير واحد من المحققين، وفي الانتصاف أن ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار جيء به لتهكم؛ فإن غير الله تعالى لا يخلق شيئًا ولا مساويًا ولا منقطعًا، وقد كان يكفي في الإنكار لولا

وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئًا من ماله^(١)، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيَّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثالثًا: الله تعالى فاطر الخلق:

إن الإنسان بكل إدراكاته الحسية والعقلية يؤمن بأن له خالقًا عظيمًا بالفطرة، فالحق تبارك وتعالى - فاطر الخلق، وقد وردت عدة آيات كريمات بهذا الخصوص تبين بأن الله سبحانه وتعالى هو فاطر الخلق. وهاهنا وضمن هذا السياق يعني مفهوم الفطرة: (البداية)؛ فالحق هو الذي يبدئ الأشياء بدلالة قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفِّكُونَ﴾ [يونس: ٣٤].

وهذا مقام تقرير وتعيد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير وهو احتجاج عليهم بأن حال آلهتهم على الضد من صفات الله تعالى؛ فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس

(٢) التحرير والتنوير ١١/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) انظر: فتح القدير ٦/ ٤٦٠.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ٨٤/ ١.

ذلك أن الآلهة التي اتخذوها لا تخلق.^(١)
ففي ذلك دلالة واضحة جد الوضوح
على القدرة الباهرة لله تبارك وتعالى.
وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ﴾
[المؤمنون: ١٧].

ففي ذلك انتقال من الاستدلال بخلق
الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].
إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية؛
لأن أمرها أعجب وأغرب، وإن كان خلق
الإنسان إلى نظره أقرب؛ وذلك للتنبيه على
أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه
إلا لحكمة بالغة، وأن الحكيم لا يهمل
ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء
المسيئين على سيئاتهم، وأن جعله تلك
الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن
لها صلة بنا؛ لأن عالم الجزاء كائن فيها،
ومخلوقاته مستقرة فيها، والمراد بها هنا
طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها،
أي الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها
سموت سير الكواكب^(٢).

ومن ذلك أيضًا قوله جل وعلا: ﴿أَتَنْ
يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا
كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]
﴿اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
[الروم: ١١].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٢٢/٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٨/٢٦ - ٢٧.

وإذا ثبت ذلك ثبت أن الفطرة نفسها مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة مقوٍ لها، وقد بينا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين يدعون العباد إلى موجب هذه الفطرة.

فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل، ولا بد بما فيها من المقتضي لذلك، كمن دعا جائعاً أو ظمأناً إلى شراب أو طعام لذيذ نافع، لا تبعة فيه عليه، ولا يكلفه ثمنه، فإنه ما لم يحصل هناك مانع فإنه يجيبه ولا بد ومن المعلوم إن كل نفس قابلة لمعرفة الحق وإرادة الخير، ومجرد التعليم لا يوجب تلك القابلية، فلولا أن في النفس قوة تقبل ذلك لم يحصل لها القبول، فإن لحصوله في المحل شروطاً مقبولة، وذلك القبول هو كونه مستعداً مهيباً له مستعداً لحصوله فيه^(٢).

وأما بالنسبة لقضية «دلالة الفطرة على ثبوت صفات الكمال لله؛ فلأن النفوس السليمة مجبولة ومفطورة على محبة الله،

الفطرة والإيمان بالله

يعالج هذا المحور إحدى القضايا الجوهرية، وهي قضية دور الفطرة وما حقته من مكتسبات في بنية الإنسان؛ فبعد ما آمن الإنسان بأن الله عز وجل فاطر الموجودات وأقر إقراراً يقينياً بذلك لا يشوبه غبار الشرك والالحاد، وإن لهذا الفاطر سبحانه حقوقاً وواجبات يؤديها المخلوق، يأتي الإنسان وقد وصل إلى الدرجة القصوى من الإيمان بذلك، فينعكس عليه ويكون موثراً في بنائه الكلي الحسي والمعنوي، فنجد هاهنا دور الفطرة في الإيمان بالله تبارك وتعالى واقعاً سلوكياً ملموساً.

أولاً: الفطرة والإيمان بالله:

إن صاحب الفطرة السليمة يجب أن يكون مؤمناً بالله - سبحانه وتعالى بوصفه الخالق لكل شيء؛ لذلك نجد بأن «كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها»^(١).

و«أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق وإيثاره على ما سواه فلقد ركز في فطرته الإقرار بالخالق، وهو التوحيد، ومحبة القصاص وهو العدل،

(١) شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص ٨٠.

(٢) الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

المؤمنين الصادقين العاملين المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه نداء الفطرة، ويحمل أعظم رسالة، ويؤدي أفضل وظيفة، إنه الداعي إلى الله تبارك وتعالى وإلى الخير كله، وإلى النور والطمأنينة، والحياة السعيدة في الدنيا، ويشر بالحياة الكريمة الأبدية في الآخرة»^(٥).

فله جزاء عاجل (دنيوي) وجزاء أجل (آخروي)؛ فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - لها يستحق الخضوع أمر ثابت مستقر في النفوس في أصل الفطرة الإنسانية؛ ذلك لأن من الفطرة الإيمان بالله تبارك وتعالى، فالفطرة فطرتان، فطرة تتعلق بالقلب وهي معرفة الله ومحبه وإيثاره على ما سواه من الموجودات، وفطرة عملية عبارة عن مجموعة خصال أخلاقية، فالأولى تزكي الروح وتطهر القلب بالإيمان بالله، والثانية تطهر البدن، وكل منهما تمتد الأخرى وتقويها^(٦).

وفي حال استعمل الإنسان عقله وحسه يدرك بأن معرفة الله - جل وعلا - فطرية، والمقصود بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقاً مدبراً، وتستوجب إيمانه المطلق به، وهي صفة

وتعظيمه، وعبادته، وهل تحب وتعظم وتعبد إلا من عرفت أنه متصف بصفات الكمال اللاتقة بربوبيته وألوهيته»^(١).

والله تعالى فطر الخلق كلهم: العرب، والعجم حتى البهائم على الإيمان به ويعلموه، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يميناً، ولا شمالاً، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء»^(٢).

والإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوحدانيته، واستحقاقه للعبادة أيضاً؛ لأن وجوده جل وعلا لا شك فيه ولا ريب، وقد دلت على وجوده سبحانه وتعالى: الفطرة، والعقل، والشريع، والحس»^(٣).

وإن «أمر الدين غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهاً قاهراً دبره، وأنه لم يخلقه باطلاً، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة. فلا بد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً»^(٤).

وإن «نداء الإيمان محبب إلى قلوب

(١) فتح رب البرية، ابن عثيمين ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ٤٢.

(٣) انظر: الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه،

عبدالله الأثري ١/ ١١٤.

(٤) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ٤٠.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٦.

(٦) تحفة المودود، ابن القيم ص ١٦١.

منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

«أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فتزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل.

ويدل عليه قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل» (٣).

لذا فإن «الفطرة هي العهد الذي أخذ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، وكلّ مقرّ بأن له صانعاً مدبراً، وإن عبد ما سواه ظناً منه أنه يقربه إليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقالوا: أي الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وكل مولود في العالم على ذلك الإقرار،

في حد ذاتها مغروزة في الإنسان، تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وفي الوقت الذي يعلم فيه علم اليقين بالبراهين القاطعة أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق والتأله له أعظم المنافع، يتعين بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به (١).

وقال في ذلك ابن أبي العز الحنفي في معرض تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) «وهذا الذي أخبر به صلى الله عليه وسلم هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه. منها، أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً، وهو حساس متحرك بالإرادات، ولا بد له من أحدهما، ولا بد له من مرجح لأحدهما.

ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق ويتنفع وأن يكذب ويتضرر، مال بفطرته إلى أن يصدق ويتنفع، وحيث لا اعتراف بوجود الصانع الإيمان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسد قطعاً، فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به» (٢).

وأدلة ذلك كثيرة في الخطاب القرآني

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ٤٥٨/٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٣٤/١.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤١/٣.

وهو الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها»^(١).

فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، ففيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية»^(٢).

وكذلك «الإشهاد على الأنفس يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستيعار لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم»^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

أي: صدقت والإيمان لا ينفع حيثئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس»^(٤).

وهو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة

الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونًا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولاً»^(٥).

و«أن ذلك الإقرار كان مبنياً على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهاً، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقرّوا بوجوده، فكان هذا محض التقليد.

فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولةً منه، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمّاً لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق»^(٦).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(١) شرح السنة، البغوي ١/ ١٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ١٦٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٧٧.

(٥) مفاتيح الغيب ١٧/ ٢٩٦.

(٦) المصدر السابق ١١/ ١٣٨.

﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١].

نداء؟

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء؟

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة.

﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي: إله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون؟

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ؟﴾

برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس،

في البراري، والقفار، والبحار؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار؟

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ومن الذي يسوق الرياح

مبشرةً بتزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد؟ ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي إله مع

الله يقدر على شيء من ذلك؟ ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم وتمجد

الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق»^(٣).

«فيلمس وجدانهم، وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم، وواقع أحوالهم، فالمضطرب

فإن «معنى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾: وحدوا ربكم أن معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

أي: «ذلوا يا قوم لله بالطاعة ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ يقول: ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويأتي دور الفطرة المركزي في حياة الإنسان ويتضح مدى إيمانه بربه إذا ما نزل به كرب أو حلت به مصيبة، فيلجأ مؤمناً بالله تبارك وتعالى بقلب منكسر خاشع سائلاً بربه أن ينجيه ويخلصه من هذا الكرب أو تلك المصيبة، بدلالة قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وتعني «أمن يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٣٦٢.

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٥.

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١.

الحقائق الكونية التي ساقها من قبل، حقائق خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحقائق البهيجة، وجعل الأرض قراراً، والجبال رواسي، وإجراء الأنهار، والحاجزين البحرين. فالتجاء المضطر إلى الله، واستجابة الله له دون سواء حقيقة كهذه الحقائق. هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء»^(١).

و﴿يَجِيبُ الْمُضْطَرُّ﴾ معناه بشرط إن شاء على المعتقد في الإجابة، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل، والسوء عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠].

لذلك أثبت «في الفطرة حسن العدل

في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعو ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهوى الأسناد، وينظر الإنسان حواله فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص لا قوته، ولا قوة في الأرض تجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه، أو تخلص، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة، فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

هو وحده دون سواء يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجي من الضيقة الآخذة بالخنق، والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء، وفترات الغفلة، يغفلون عنها، فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة.

فأما حين تلجئهم الشدة، ويضطرهم الكرب، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منيبين، مهما يكونوا من قبل غافلين، أو مكابرين، والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم، ويسوقها لهم في مجال

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٦٥٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤ / ٣١٧.

إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات، والمناكحات، والجنايات، وما أودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ما سواه واثبت في الفطر علمها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما اثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما اثبت فيها قبحه وعييه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكلمة مطابقة التفصيل بجملته، وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادي للإيمان^(١).

وإن لأهمية الفطرة ودورها الإيماني كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح أو أمسى: (أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)^(٢).

تقريراً لمكانة الفطرة وأنه لا يمكن لها إذا كانت صحيحة نقية أن تشوبها عوارض الأهواء ونوازع ووساوس الشيطان «فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفطرها

والانصاف، والصدق والبر، والاحسان والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونصر المظلوم، ومواساة اهل الحاجة والفاقة، وأداء الامانات، ومقابلة الاحسان بالإحسان، والاساءة بالعفو والصفح، والصبر في مواطن الصبر، والبذل في مواطن البذل، والانتقام في موضع الانتقام، والحلم في موضع الحلم، والسكينة والوقار، والرفقة والرفق، والتؤدة، وحسن الاخلاق، وجميل المعاشرة مع الاقارب والاباعد، وستر العورات، وإقالة العثرات، والايتار عند الحاجات، واغاثة اللهفات، وتفريج الكربات، والتعاون على انواع الخير والبر، والشجاعة والسماحة، والبصيرة والثبات، والعزيمة، والقوة في الحق، واللين لأهله، والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم، والاصلاح بين الناس، والسعي في إصلاح ذات البين، وتعظيم من يستحق التعظيم، وإهانة من يستحق الإهانة، وتنزيل الناس منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وأخذ ما سهل عليهم، وطوعت به أنفسهم، من الأعمال والأموال والأخلاق، ولإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، واحتمال جفوتهم، واستواء قريبيهم وبعيدهم في الحق، فأقربهم إليه أولاهم بالحق، وإن كان بعيداً، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان قريباً قريباً.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٨١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧٧/٢٤، رقم ١٥٣٦٠، والنسائي في الكبرى، ٥/٩، رقم ٩٧٤٣.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١٩٠/٧.

الانحراف عن الفطرة

عند التأمل في قضية الفطرة الإنسانية التي فطر الله تبارك وتعالى العباد عليها نجدتها متكاملة، ترتقي بالإنسان إلى أعلى مراتب الرقي والتقدم؛ ولكن في حال سار عليها، ولم يعكر صفوها بالانحرافات والضلالات الشيطانية، ولهذا الانحراف بالفطرة عن مسارها الإلهي أسباب. وقد وردت هذه الأسباب في الخطاب القرآني في عدة مواضع بشكل أو بآخر، وبعد ذلك يشعر الإنسان بنتائج الانحراف الذي مارسه على الفطرة؛ لذا يكون له آثار جوهرية في حياة الإنسان.

أولاً: أسباب الانحراف عن الفطرة:

إن من أهم أسباب الانحراف عن الفطرة «القلق الناتج عن مخالفة الفطرة بالعصيان لقد خلق الله عباده على فطرة سوية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة»^(٣).

وفي ذلك إشارة لصفة التسوية في مقادير تكوين الفطرة الإنسانية التي أودعها الله -

وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة، ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها، وردها إلى حالتها، التي خلقت عليها، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها»^(١).

(٢) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية، الجربوع ٢/ ٤٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٩.

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٥٨.

وقال في أهل النار: ﴿يَلْبَسُهُمْ مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال عن كفار قريش: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

بل إن كلمة (كفر) مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في لسان العرب؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحجب الشبهات والشهوات. ومن أهم أسباب انحراف الفطرة في القرآن الكريم: ١. الغفلة والنسيان.

وقد بينت النصوص القرآنية ذلك بأن حالتي الغفلة والنسيان من أهم ما يطرأ على الفطرة، حتى يترك العبد الميثاق الأول والآخر بينه وبين ربه بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

«أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده، وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يفسد

عز وجل في النفس الإنسانية؛ فعندما يتدخل الإنسان بتغيير هذه الصفة أي: صفة التسوية القويمة، يعصي خالقه ويعرض نفسه لمخاطر غضب الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة. لقد أرشد الله تبارك وتعالى هذه النفس إلى فجورها وتقواها وبين لها ذلك وهداها إلى ما قدر لها^(١).

والأصل في الإنسان هو التوحيد «وإذا كان الفقه هو معرفة الرخصة عن دليل فإن التوحيد هو الفطرة من غير تبديل»^(٢).

ومن أنكر وجحد الله تعالى فإنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، وقد جاء التصريح بذلك في الخطاب القرآني بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يدعوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

«والمقصود: أننا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحراً، ففي ذلك مثل للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول»^(٣).

(١) انظر: المصدر السابق ٨/ ٣٩٩.

(٢) معارج القبول، الحكمي ١/ ٧.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٢٥.

(٤) انظر: إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان، الشهراني ص ٢٥ - ٢٧.

من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟

قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُهُمْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

«فنسوا حظًا مما في التوراة قاله مجاهد. وقيل: أنساهم نصيبًا من الكتاب بسبب معاصيهم، وعن ابن مسعود: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية»^(٤).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [٤٤].

فطرته عامل خارجي عنها! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال. وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف. إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة «الإنسان» وحده ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله- وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه- بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثيره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة^(١).

ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررههم وقال لهم: أأست بريكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

والمعنى: وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك

(٣) المصدر السابق ٣/ ٩١.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٤٦٢.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٩٤.

(٢) الكشف، الزمخشري ٢/ ١٦٦.

[الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ
لَهُمْ وَلِمَا وُعِدَتْهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ
نَنْسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا
كَانُوا بِبَالَيْنِنَا يَمْحُذُونَ﴾ [الأعراف:

[٥١].

٢. التربية على العقائد الباطلة.

وقد حكى القرآن الكريم عن ذلك في معرض حديثه عن المشركين بأنهم اتبعوا آثار آبائهم، وأنهم تمسكوا بذلك، واعتبروه ديناً يعبد بلا حجة ولا برهان، واليوم في وقتنا الحاضر اتبعت الشعوب الإسلامية مناهج الملاحدة الوضعية، ومن هذه المناهج (الشيوعية).

«إنها جناية كبرى ارتكبتها الشيوعية في حق الأخلاق والقيم، وخالفوا الفطرة التي جبل عليها البشر على امتداد تاريخهم من حب الخير وبغض الشر، وما يتبعهما من صفات وسلوك فاضل»^(١).

و«إن الإنسان حينما يقف عاجزاً عن معرفة سر هذا الكون، ويتفكر في خلق الله والأرض والنجوم وسائر الأفلاك، وتتابع الليل والنهار، والحياة والموت، وسائر ما أوجده الله في هذا الكون، إذا فعل الإنسان ذلك يجد نفسه عاجزاً عن إدراك كل هذا،

وحينئذ يعرف بفطرته أن هناك موجد عظيم لهذا الكون هو أقوى منه، يستحق أنه يخضع له، وأن يعبد ويرجو ثوابه ويخاف عقابه، لا أن يعتقد أن المادة خلقتها؛ فإن التفكير في كل ذلك يهدي إلى الاعتراف بخالق عظيم قدير حكيم، لا أن للمادة معه مشاركة؛ بل هي مخلوقة له حدثت بعد أن لم تكن، وهذا هو ما اعترف به الملاحدة في أنفسهم، وجحدوه ظاهراً تعصباً لنظرياتهم الفاسدة، وقد ذكر الله عز وجل كثيراً من عجائب هذا الكون، ورغب الناس في التفكير فيه واستخلاص العبر»^(٢).

ونجد بأن «الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تؤمن بوجود الله خالقها ومدبرها، ومن أنكر ذلك فإنما يغالط نفسه ويشقيها، فالشيوعي - مثلاً - يعيش في هذه الحياة تعساً، ومصيره بعد الموت إلى النار، جزاء تكذيبه بربه الذي خلقه من العدم، ورباه بالنعم إلا إن تاب إلى الله، وآمن به وبدينه ورسوله»^(٣).

لذا «هكذا كانت البشرية الأولى على الفطرة والتوحيد لقرب عهدها بربها تعالى، ثم اختلطت بعد ذلك الينايع وتضافرت العوامل التي أدت إلى الانحراف عن التوحيد، فكان ظهور الشرك طارئاً بعد ذلك

(٢) المصدر السابق ٢ / ١١٨٣.

(٣) دين الحق، عبد الرحمن آل عمر ص ١٠.

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة، غالب عواجي ١١١٨/٢.

التوحيد، وكان انحرافاً عنه»^(١).

«ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهرياً، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٣. إتباع سبل الشيطان.

قال تعالى في ذلك: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكٌ لِّلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال ابن عباس: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ «أعماله»^(٣)، لا تجعلوها تجركم.

«أي: لا تقتدوا بها في اتباع الهوى، فإنه صريح في أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهذا ليس من

باب اتباع خطوات الشيطان، فضلاً عن كونه تقولاً وافترافاً على الله تعالى، وإنما نزل فيهم»^(٤).

نهي مقصود ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الضمير للناس لا محالة وهم المشركون المتلبسون بالمنهي عنه دوماً، وأما المؤمنون فحظهم منه التحذير والموعظة»^(٥).

ونجد بأن «اتباع الخطوات» معناه: أن يتابع الإنسان غيره في عمله، كمتبع الأثر الذي يتبع أثر البعير، وأثر الدابة، وما أشبهها. و﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: أعماله التي يعملها، ويخطو إليها؛ وهو شامل للشرك فما دونه؛ فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر»^(٦).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والمقصود «أن كيد الشيطان كان ضعيفاً، لأن الله ينصر أوليائه، والشيطان ينصر أوليائه، ولا شك أن نصرة الشيطان، لأوليائه أضعف من نصرة الله لأوليائه، ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على

(١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان جمعة ضميرية ١/ ٢٢٠.

(٢) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث: ١٦/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٠٨.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٧.

(٥) التحرير والتنوير ٢/ ١٠٢.

(٦) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة ٢/ ٢٣٣.

وقال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِنَّاكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُمْ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

خطاب مباشر ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِنَّاكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمحنتكم بأن يمنعكم دخول الجنة يا غواثكم. ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيمهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا﴾^(٤).

«تحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون»^(٥).

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].

«تعليل لخدلانه أو تحقيق لضلالته» ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ فيه دلالة على أن الكافر المخطيء والمعاند سواء في استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر»^(٦).

«والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون

وجه الدهر، وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلة، وأما الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقراض أثرهم، ولا يبقى في الدنيا رسمهم ولا ظلمهم، والكيد السعي في فساد الحال على جهة الاحتيال عليه يقال: كاده يكيد به إذا سعى في إيقاع الضرر على جهة الحيلة عليه. وفائدة إدخال كان في قوله: كان ضعيفاً للتأكيد لضعف كيد، يعني أنه منذ كان موصوفاً بالضعف والذلة»^(١).

«إنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته؛ فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته، ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك»^(٢).

«ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيدَه للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين، ضعيف لا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه»^(٣).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/١٤٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٧.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/٨٣ - ٨٤.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/١٠.

(٥) الكشف، الزمخشري ٢/٩٤.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/٢٢٤.

أبيه على الكفر، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير: هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير. ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه في النار واللعنة، فتكون بهذا السبب موليّاً، أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه، وليس هناك ولاية حقيقية^(٢).

ونجد بأن «المراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفساحاً عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفتنون إلى حالهم ويتبعون وسأوسه تحت ستار التمويه، ففي الكلام إيجاز لأن معناه: لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وسأوس الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وسأوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عبد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضللاً معلوماً»^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتَ عَادَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

ويكون علاج هذا الانحراف بالرجوع

بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله، ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة^(١) وهذا أشد في تمردهم وعنادهم^(١).

ثانياً: نماذج قرآنية في الانحراف عن الفطرة:

١. عبادة الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

«أي: لا تقطعه، فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، ومن أطاع من هو عاصي لله سبحانه فهو عاصي لله، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم، وتحل به النقم.

قال الكسائي: العصي والعاصي بمعنى واحد. ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال: ﴿يَتَابَتِ إِنْ أَخَافَ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ قال الفراء: معنى أخاف هنا أعلم. وقال الأكثرون: إن الخوف هنا محمول على ظاهره لأن إبراهيم غير جازم بموت

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٩٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١١٦.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٢٧.

السبل التي لا تستقيم على هذا الصراط، فهي طرق لا معلم فيها، ولا شارة عليها، يركبها الراكب فيتخبط، ويتعثر، ويضل ولهذا جاء التعبير عن صراط الله بلفظ المفرد، لأنه واحد لا غير، إذ الحق حق وجهه واحد، وطريقه واحدة، وأما الباطل، فهو أباطيل متعدد الوجوه، مختلف السبل» (٢).

٢. الغلو في الدين.

قال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكَتَبَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

نلاحظ أن «الغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين. ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسول الصادقين. وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم: فاليهود طولبوا باتباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بغضة الرسول كعيسى ومحمد عليهما السلام،

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣٤٨/٤.

إلى الصراط المستقيم بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

«فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم فاتبعوا جملة وتفصيلا، ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات» (١).

و«هو تعقيب على تلك النواهي والأوامر التي أمر الله سبحانه النبي الكريم أن يتلوها على الناس. فهذه الأمور وتلك المنهيات هي شريعة لله، وهي الصراط المستقيم الذي دعا لله عباده إلى الاستقامة عليه، فمن اجتنب المنهيات، وأتى الأمور، فهو على صراط الله، وعلى شريعة الله، ومن انحرف عن هذا الصراط، فقد ضل وغوى، وكان من الهالكين وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أمر بإتيان الأوامر وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ نهى عن إتيان المنهيات وفي التعبير عن سبيل الله «بالصراط» والتعبير عن الطرق الخارجة عنه بالسبل - إشارة إلى أن طريق الله «صراط» أي طريق معد ومهيأ للسالكين، تقوم عليه منارات هدى، وإشارات هداية أما هذه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨٥/١٤.

ولكن ينزل بقدرٍ بتقدير، ما يشاء كما اقتضته مشيئته. إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم؛ فيقدر لهم ما يناسب شأنهم»^(٤).

٤. التمسك بالدنيا.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

لقد «زين للناس حب الشهوات أي المشتبهات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهواتها»^(٥).

«حب الشهوات: يعني المشتبهات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشيء المشتبه من النساء.

إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولأنهن حباثل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، وقوله: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، ووجه حبه ظاهر لأنه يتكرر به، ويعضده، ويقوم مقامه. وقد جعل الله تعالى في قلب

والنصارى طولبوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم»^(١).

و«إنما معناه في الدين الذي أنتم مطلوبون به فكأنه اسم جنس وأضاف إليهم بيانا أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أمروا بالثبوت عليه دون غلو وإنما أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يوحّدوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلكوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام، ثم بين تعالى أمر المسيح وأنه «رسول الله وكلمته»^(٢).

٣. المبالغة في طلب الرزق.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

«معناه: وسع. وبسط الشيء نشره. وبالصناد أيضا ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغوا وعصوا»^(٣).

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء، وهذا على الغالب، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية.

(١) التحرير والتنوير ٥١/٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٦٣/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٧/١٦.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٨١/٥.

(٥) المصدر السابق ٨/٢.

ذهبًا أو فضة، وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بعبور القنطرة المقنطرة أي المجموعة.

وقيل: المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة، والمقنطرة المضاعفة أن تكون ستة أو تسعة، وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة من الذهب والفضة. إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء، وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده، وهي صفة كمال وهي محبوبة.

وقيل: سمي الذهب ذهبًا لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة لأنها تنفض أي تتفرق.

﴿وَالْخَيْلَ الْمُسَوَّمَةَ﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط، سميت الأفراس خيلا لاختيالها في مشيتها، وقيل: لأن الخيل لا يركبها أحد إلا وجد في نفسه مخيلة عجبًا.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ أي: المرجع، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

وقيل: فيه إشارة إلى أن من أتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى^(١).

الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهي بقاء التوالد، ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك.

﴿وَالْقَنْطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ﴾ جمع قنطار وسمي قنطارا من الإحكام والعقد يقال: قنطرتة إذا أحكمته، ومنه القنطرة المحكمة الطاق، واختلفوا في القنطار هل محدود أو غير محدود؟ على قولين:

أحدهما: أنه محدود، ثم اختلفوا في حده، فروي عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومائتا أوقية. وقال ابن عباس: ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم، وبه قال الحسن، وقال سعيد بن جبير: هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا، وقال سعيد بن المسيب وقتادة: هو ثمانون ألفا وقال مجاهد: سبعون ألفا. وقال السدي: هو أربعة آلاف مثقال.

والقول الثاني: إن القنطار ليس بمحدود. وقال الربيع بن أنس: القنطار مال الكثير بعضه على بعض، وروي عن أبي عبيدة أنه حكى عن العرب أن القنطار وزن لا يحد، وهو اختيار ابن جرير الطبري وغيره.

وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال.

وقال أبو نصر: القنطار ملء مسك ثور

(١) لباب التأويل ١/ ٢٣١.

الاستقامة على الفطرة

في هذا المبحث نجد بأن المفاهيم تغيرت عن مفاهيم المبحث السابق بخصوص الفطرة، فهناك تناولنا الانحراف عن الفطرة: أسبابها، ونماذجها، وأثرها في القرآن الكريم، أما هنا فنعالج وسائل الاستقامة والمحافظة على الفطرة الإلهية نقية طاهرة من الأدران، وأثر هذه الاستقامة في بناء الإنسان مع بيان نماذج من وجوه الاستقامة على الفطرة في العباد.

أولاً: وسائل الاستقامة على الفطرة:

على المسلم أن يحسن الظن بالناس، ولا يستغرب وجود الاستقامة على الفطرة فيهم؛ لأن «الفطرة السلامة والاستقامة»^(١). وكذلك فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يوجب سلامة الفطرة الإنسانية وحسن قصدها؛ ولكن هناك عدة وسائل للاستقامة على الفطرة السليمة، تبدأ:

١. التربية الصالحة.

إن التربية الصالحة تنطلق من حسن اختيار الزوجة الصالحة؛ لأن الزوجة الصالحة تعد تربة طيبة لبذور صالحة، فإذا وضعنا هذه البذور الصالحة في تربة صالحة، نضمن بإذن الله تبارك وتعالى وجود ذرية

صالحة؛ ولذا لا نعجب من تركيز الإسلام ممثلاً بخطابه القرآني على اختيار الزوجة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونجد استمرار الحث على حسن اختيار الزوجة في الخطاب النبوي الشريف؛ فقد ورد ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لِمَالِها وَلِحَسْبِها وَجَمَالِها وَلِدِينِها، فاطفر بذات الدين، تربت يداك)^(٢).

فهو يخاطب النفس الإنسانية بحسب ما تفكر به، فالنفس ترغب بالمال والحسب والجمال، وآخر شيء تفكر فيه الدين، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل الدين هو المعيار في الاختيار، وإن تأخر، فجعل الظفر لا يكون إلا به بأسلوب التشكيل الاستعاري في قوله: (تربت يداك) أي افقرت، ثم بعد ذلك يأتي دور التربية ابتداء من سن الطفولة التي يقول علماء النفس وعلماء الاجتماع عنها: إن السن السابعة هي السن المناسبة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب باب الأكل في الدين، ٧/٧، رقم ٥٠٩٠.

(١) التمهيد، ابن عبد البر ٧٠/١٨.

فلا تترك الفطرة عرضة لهوى النفس، فتضبط حاجاتها وغرائزها من الآباء «فأخبر أن أصل ولادتهم ونشأتهم على الفطرة، وأن التهويد والتنصير والتمجيس طارئٌ طرأ على الفطرة وعارضٌ عرض لها، واقتضى هذا العارض الذي عرض للفطرة أمورًا استلزمت ترتيب آثارها عليها بحسب قوتها وضعفها، فالآلام المترتبة على ذلك من جنس الآلام والعقوبات المترتبة على خروج البدن عن صحته، وهو إنما خلق على الصحة والاعتدال، فإذا استمر على ذلك لم يعرض له ألمٌ.

وكذلك القلب فطر على الفطرة الصحيحة، فلما عرض له الفساد ترتب على ذلك العارض أثره من الآلام والعقوبات، ولا ريب أن ذلك العارض ليس في أصل الفطرة بحيث يستحيل زواله، بل هو ممكن الزوال، والناس في زواله، فحين عاد إلى موجب الفطرة أجاب الداعي من غير توقف. ومنهم من توقف لقوة العارض فاحتاج مع الدعوة إلى موعظةٍ تتضمن ترهيبه وترغيبه.

ومنهم من غلبت عليه المادة الفاسدة فاحتاج مع ذلك إلى المجادلة.

ومنهم من كان العارض أشد من ذلك

باب باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٩٤ / ٢، رقم ١٣٥٨.

لتربية الأطفال في البيت وفي المسجد أيضًا. ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف عن عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)^(١).

ثم لا يزال يلزم الأب أن يتعاهد الذرية تربية وإعدادًا وتجهيزًا وإصلاحًا حتى يأتي سن العاشرة، فلا بد من أن يزيد في أمره لأولاده بالصلاة حتى يعيشوا مع الصالحين في المساجد وإذا بلغ أحدهم الحلم فلا بد أن يكون جاهزًا ليميز المعيار الواضح بين الكفر والإيمان.

فالأب مسؤول عن تربية أولاده، وإدامة الفطرة السليمة فيهم بدلالة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ آلِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ١/١٣٣، رقم ٤٩٤. وصححه الألباني.

في صحيح الجامع، ٢/١٠٢١، رقم ٥٨٦٧. (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز،

فعدل معه إلى الجلال والمحاربة ونوع من العقوبة، فأزال ذلك تلك المادة وأعاد الفطر إلى صحتها.

ومنهم من كان فساد فطرته قد استحکم وتمكن، فصار له بمنزلة الصفة الثابتة، ولم يكن بد من أن يحتمي عنه ليزول ذلك الخبث ويتخلص منه، ويعود على ما خلق عليه أولاً؛ ولهذا لما خرج خبث الموحدين من أهل الكبائر بسرعة؛ تعجل خروجهم من النار، وعاد إلى ما خلقوا عليه أولاً من كمال النشأة وزوال موجب هذا العذاب، فلم يبق لهم مصلحة في التعذيب بعد ذلك.

وأما المشركون: فلما كان العارض استحکم فيهم، وصار كالهَيْئَةِ والصفة استمروا في النار، تحمى عليهم أشد الحمو لقوة ذلك الخبث^(١).

٢. التمسك بالقرآن والسنة.

إن التمسك بالوحي هو أول أسباب المحافظة على الفطرة «فإن الفطرة - وهي طريق صحيح ومصدر معتبر في ذلك - قد يطرأ عليها ما يغشيها ويحرفها عن صوابها، فتحتاج إلى ما يجلوها، ويصح مسارها، ويمنعها من الانحراف، وذلك هو الوحي» القرآن والسنة الذي تكفل الله تعالى بإنزاله هداية للناس ورحمة بهم^(٢).

من ذلك قول الله سبحانه وتعالى بعد أن أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض بعد أن وسوس الشيطان لهما فأكلا من الشجرة: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، وفي موضع آخر نجد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هَذَا فَلَا يُضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

وقد رتب على هداه عدة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان متظراً، أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة.

أما من ضل وكفر فتوعده الله بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

(١) مختصر الصواعق المرسله ٢٥٧/١.

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان

فإن طريق النجاة في لزومها علمًا وعملاً، ونظرية وتطبيقًا في الأمن والخوف، والسلم والحرب، فالشريعة موضوعة لسير الناس عليها بوصفها منهج حياة، وهي مستقيمة لا تنحرف وواسعة لا تضيق، بدلالة قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الْفَالِغِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [الجنابة: ١٨ - ١٩].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاهُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

إن إتباع شرع الله تعالى والتقيّد بالمنهاج الرباني، وترك ما سواه من السبل والمناهج الجاهلية الإلحادية الخارجة عن الفطرة السليمة التي أنكرت وجود إله قادر على تدبير شئون عباده، أو أشركت معه غيره، وقامت على مناهج عقلية وفلسفية قاصرة؛ لأن الكمال لله، وزعموا الاستغناء عن خالقهم ومدبر شؤونهم فاستغنى الله عنهم.

و(أصحاب النار) أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينصرون^(١).

ويطالعنا حديث نبوي شريف في السياق نفسه فيه دلالة قاطعة على وجوب التمسك بالله - عز وجل والخضوع له قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عن البراء بن عازب، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أثبت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به). قال: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: (لا، ونيك الذي أرسلت)^(٢).

إن من عواصم الفطرة من التغير والانتكاسة لزوم شريعة الإسلام، وعدم الحيدة عنها قليلاً كان ذلك الحيد أو كثيراً؛

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب باب فضل من بات على الوضوء، ٥٨/١، رقم ٢٤٧.

وَكَذَلِكَ يَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِتَايَاتِ رَبِّهِ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

ومن فطرة الإنسان أن يتبع ما يهديه للحق، ويجلب له المصلحة، فمتى أبصر طريقاً يقيناً أو ظن بأنها موصلة إلى مقصود لم يتركها إلى غيره، وقد أدرك السلف الصالح بأن من الفطرة أن يلزم المسلم شرع الله تعالى، ولا ينحرف عنه قيد أنملة، سواء أكان ذلك الانحراف بسبب الجهل أم بداعي التقصير، فمثلاً أداء الصلاة في وقتها من الفطرة السليمة، والعقيدة الإسلامية تقضي بأن توقيت العبادات من حقوق الله تعالى.

فجميع العبادات الزمانية والمكانية كلها لله عز وجل والتقيد بوقتها مظهر من مظاهر الفطرة. ويمكننا قياس ذلك على بقية الشرائع التي جاء بها الإسلام، كالحدود والمعاملات والمرافعات وغيرها، وهي تنفع الناس، والله يعلم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

ودليل ذلك نجده في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمَنَّ خَلْقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

«فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟» (١).

٤. جهاد الشيطان.

إن الشيطان يلقي في القلوب من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٦.

فجعلت الشيوعية شعارها (لا إله والكون مادة)، ونفت بالكلية وجود الإله، وتعتنق معظم الشعوب الرأسمالية عقيدة التثليث والإيمان بثلاثة آلهة (الأب والابن وروح القدس)، وتتخذ العلمانية منهج حياة، أي تقر بوجود إله خالق للعباد ولكنه عاجز عن تدبير شؤون عباده - حاشا لله، وللأسف الشديد نجد كثيراً من المجتمعات الإسلامية التي تدعي الإسلام ادعاء تمارس هذه المناهج وتتخذها منهج حياة.

لقد شرع الله عز وجل أفضل الشرائع، وهدى الناس لأقوم السبل بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا شك بأن الشريعة الإسلامية هي وحدها الكفيلة بإصلاح الدين والدنيا، وإسعاد الإنسان في الآخرة والأولى، وذلك لما تنفرد به من العقيدة الصحيحة والشعائر الجليلة والشريعة العادلة.

ونجد أن من أعرض عن هذه الشريعة والمنهاج توعده الله بالعقوبة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٨) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٩) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ آيَاتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٣٠)

والنبوة، وذكر شبهات المنكرين، وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحققين والمحققين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة، والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

وها هنا رفع الوساطة من البين، وذكر أنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضًا من غير واسطة، واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحا فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن، ولهذا قال أهل التحقيق إنهم يوم القيامة آمنون من الأوهال^(٢).

و﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الأمور التي هي متتهى العمل، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل، وتوقف اعتباره على التوحيد. فلا خوف عليهم من لحوق مكروه. ولا هم يحزنون على فوات محبوب، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ فِيهَا

الوساوس والخواطر الفاسدة ما لا يعلم خطورتها إلا الله تعالى، والمؤمن الموقن هو من يدفع تلك الوساس والوسائل (الشیطانية) ويصون قلبه أن يدخله شيء من تلك الوساس والخواطر. وجهاد الشيطان مرتبتان: إحداهما: الجهاد من خلال دفع ما يلقي إلى العابد من الشبهات والريب القاذبة بالإيمان، والثانية: الجهاد المتمثل في دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فإن الجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر^(١).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ثانيًا: نماذج قرآنية في الاستقامة على الفطرة

١. التوحيد والاستقامة:.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

«اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/١٣.

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/١٠.

جَزَاءَ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [الأحقاف: ١٤]. من اكتساب الفضائل العلمية والعملية»^(١).

٢. الإيمان والعمل الصالح.

إن للإيمان والعمل الصالح أثر في الاستقامة على الفطرة في الخطاب القرآني؛ لذلك نجد اقترانهما في أغلب المواضع القرآنية.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥].

و«مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ الآية، و«البشارة» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بشرة المخاطب بالسورور؛ لأن الإنسان إذا أخبر بما يسره استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «البشارة» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

إما تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تغير به بشرتهم، وتسود به وجوههم، وتظلم، كقوله تعالى في

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١١٣/٥.

عذابهم يوم القيامة: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨-٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ إما للرسول صلى الله عليه وسلم؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشر أيها النبي؛ أو بشر أيها المخاطب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله.

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله - عز وجل المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد»^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورتي الفاتحة والبقرة، ٩٠/١.

فلهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من ملاسة المعاصي والإصرار على الذنوب^(١).

٤. تلبية دعوة الله والرسول.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أن ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ على هذا المعنى كان هذا جاريًا مجرى إيضاح الواضحات وأنه عبث، فوجب حمله على فائدة زائدة، وهي الوجوب صوتًا لهذا النص عن التعطيل، ويتأكد هذا بأن قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ﴾ جار مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب^(٢)، والمعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي، وفيه الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية^(٣).

٥. إقامة الصلاة والإنفاق.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَ بَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَهُمْ سِرًّا

مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

٣. الإيمان والابتعاد عن سبل الضلالة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

«إن هؤلاء الجاهل مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم يتفعوا بشيء منه بل بقوا مصرين على جهلهم مجدين على جهالاتهم وضلاتهم، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلاتهم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهي، فلا يضركم ضلاتهم وجهالتهم.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٤٤٨.

(٢) المصدر السابق ١٥/٤٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/٨٩٣.

وَعَلَايَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ [إبراهيم: ٣١].

«أي إن أهل مكة بدلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس، أي قل لهم أقيموا، والأمر معه شرطٌ مقدّر، تقول: أطع الله يدخلك الجنة، أي إن أطعته يدخلك الجنة، هذا قول الفراء»^(١).

و«يقول تعالى أمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإن يتفقا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يومٌ وهو يوم القيامة لا بيع فيه ولا خلالٌ أي ولا يقبل من أحدٍ فدية بأن تباع نفسه»^(٢).

٦. التقوى والقول السديد.

لقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] «يقول تعالى أمرا عباده

المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كانه يراه، وأن يقولوا قولا سديدا أي مستقيما، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم»^(٣). و﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحق من سد يسد سداذاً، والمراد النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصد ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. ومن يطع الله ورسوله في الأوامر والنواهي. فقد فاز فوزاً عظيماً يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً»^(٤).

ثالثاً: أثر الاستقامة على الفطرة:

إن التربية الإسلامية تسعى إلى تحقيق غاية عظيمة، تتمثل في استقامة النفس

(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٣٠.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٠.

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٦٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٤/ ٤٣٨.

عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

فقد «قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوهم من أهل الأديان»^(١).

وقد ورد عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي حديث أبي أسامة غيرك - قال: (قل: آمنت بالله، فاستقم)^(٢).

فهذه الاستقامة الإيمانية لا تتحقق إلا من خلال التفقه بالدين ومعرفة أموره، والاحاطة بتعاليمه، ورعاية الأخلاق وتطبيقها في الواقع، ليصبح بذلك قدوة صالحة وأسوة

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٣٦٩/٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، ١/٦٥، رقم ٣٨.

الإنسانية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة؛ وذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بممارسة شرائع الإسلام وإتباع تعاليمه، والانقياد لأوامره، والابتعاد عن نواهيها؛ فالاستقامة إذن مرحلة ثانية بعد الإيمان؛ لأنها أثر من آثاره، ونتيجة من نتائجه، فهي بمثابة التربة النقية الضابطة لكل متعلقات فطرة الله سبحانه وتعالى تؤدي في المحصلة النهائية إلى تطهير القلب والنية لترسم السلوك الإنساني.

فطهارة الخارج تدعو أولاً إلى طهارة الداخل، وطهارة الإنسان الفرد مدعاة لطهارة المجتمع عموماً؛ لأنه صورة مصغرة لهذا المجتمع، فالاستقامة على الفطرة تبني إنساناً مثالياً كما أراد الله، وبخلافه نجد إنساناً تملوه المعاصي وأوهام الدنيا وزينتها الخداعة؛ لأنها زائلة ومتاعها غرور.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَيْرِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل

عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ الْفَكْرِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَىٰ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ الْفُرُورِ﴾ [آل

حسنة، ومن يتمتع بكل ما ذكرنا يحصل على السعادة وعدم الحزن والبشرى بالجنة بدلالة قوله مسلم تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

يقول تعالى في هذا السياق ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله من شريعة لهم ولم يشركوا به شيئاً^(١).

موضوعات ذات صلة:

الأسرة، الإسلام، الألوهية، التوحيد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧/ ١٦١.